# الفصل الثالث

# رأي المؤلف في حركة ابن عبد الوهاب ومستقبلها

قصة تأسيس الدولة السعودية الأولى في الدرعيـــة ، هي قصـة كفاح رجلين عظيمين ، وهما :

١ ــ الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

٢ ــ الأمير محمد بن سعود .

لذلك كان هذا الجزء من كتابنا وقفاً عليها ، وحدهما !

كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب عالماً مناضلاً ، من طراز ابن تيميـة ، ولابن تيمية عليه فضل السبق ، إلى علم أغزر وأسلوب في الكتابة أنضر ، ولكن الشيخ ــ ونعني بكلمة الشيخ مجردة : : الشيخ محمد بن عبد الوهـــاب ــ كان أجمع لصفات الزعامة وموهبة التحدث إلى الخاصة والعامة ، من ابن تيمية !

ولسنا الآن في مجال المفاضلة بين الرجلين الكبيرين ، فما أحب الشيخ أحداً من العلماء الذين جاؤوا بعد الإمام أحمد ، كما أحب ابن تيمية ، ولكننا أردنا أن نود بهذا على فكرة انتشرت في كل مكان : وهي أن ابن تيمية أخفق في دعوته ، لأنه ظهر في بلاد الشام ، المتحضرة ، الغارقة في النعيم ، وابن عبد الوهـــاب انتصر ،

لأنه ظهر في بلاد نجد « البدوية » المتقشفة !

وليس هـــذا « التفسير » في نظرنا صحيحاً ، وإن كان فيه بعض الحق ؛ فالصعوبات التي لقيها الشيخ في « البيئـــة » النجدية التي ادعوا سرعة استجـــابتها للدعوات الدينية كانت عظيمة ؛ ولكن الشيخ أوتي من صفات الزعـامة وحلاوة الحديث فوق ما آتى الله ابن تيمية ، وشيء آخر جليل القدر جـداً ، ضمن لدعوته النجاح بعد أن زلزلت الأرض تحتها ، هو :

إيواء محمد بن سعود ، أمير الدرعية ، للشيخ في بلدته ، وحمايته لدعوته ونصرته لها وجهاده في سبيل نشرها جهاداً موصولاً لا هوادة فيه !

ومن هناك شبهوا هجرة الشيخ الى الدرعية ، بعد أن أخرجه أمير العيينة من بلدته ... بهجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة ، حيث حمـــاه الانصار ومنعوه وجعلوا اليه زعامتهم العليا .

إن فضل الأمير محمد بن سعود في حماية الدعوة ونصرتها ، فوق الكلمات القليلة التي « صرفها » اليه ابن غنام وابن بشر ، وكان من حق هذا الأمير أن يتحدث عنه مؤرخا نجد حديثاً أطول وأفضل ... فكأن شدة تلألؤ كوكب ابن عبـــد الوهاب في تلك الأيام قد حجبت شيئاً من حسنات هذا الأمير الباهرة !

ولسنا نعني بهذا أن محمد بن سعود أعظم من محمد بن عبد الوهاب ، أو مثـله ، فالشيخ هو صاحب الدعوة الدينية الاصلاحية التي حققت انقلاباً معجزاً في حيـاة نجد وبلاد العرب كلها .

ما في ذلك شك !

وكتابنا هذا يصف لك حياة الشيخ وجهاده ودعوته في مراحلها المختلفة .

ونحب الآن أن نتدارس مسألتين تشغلان الأذهان :

الأولى ـ هل صحيح أن بلاد نجـد كانت ، عند ظهور الشيخ ، في ظـــلام حالك ، لا يكاد يتبين فيه الانسان « بصيص » نور ؟

الثانية ـ هل تستطيـع حركة الشيخ ، بعد أن أدت رسالتها في الماضي ، أن تستمر ... وتحقق مطالب الزمن و « التطور » والأجيال الصاعدة ؟

## المسألة الأولى

نقلنا أقوالاً وآراء لابن غنام وابن بشر ومؤلفين أجانب تصور حالة نجد ، في عصر الشيخ ، صورة مخيفة ..

فابن غنام وابن بشر يقولان إن الشرك طغى على الناس حتى عادوا الى عهد الجاهلية ، قبل الإسلام .. ولم يبق من الدين إلا اسمه ، بعد أن زال رسمه !

ونجد لأقوالهما صدى في كلام الرحالة الأنكليزي « بلغريف » الذي يقول :

« أصبح الدين .. ذكرى بعيدة غامضة .. وظهرت عبادة الجن ، في ظـــل شجرة أو في أعماق كهف ؛ وقدس الناس الموتى ونذروا للقبور .. وأحيوا عادات قديمة وثنية سيئة .. وأهملوا القرآن ، وتناسوا الزكاة ، والصيام ، والحج .. ومـا عادوا يعرفون أين تقع القبلة ! »

هكذا كان الدين .. أو « اللادين » !

أما في السياسة : فبداوة تسلب وتقتل وتفرض على المدن المتفرقة « الاخاوة » وتتهدد سلامتها .. وتقطع الطرق .. وحروب متصلة .. وغدر ..

وقد استعنا بكلمة للطبري، نصوّر بها تفرق بلاد نجد الى« دويلات » لا يحصى لها عدد ؛ ضعيفة ، متخاذلة ، متحاربة ، بحيث كانت نجد تجسيـــداً لقصة « ملوك الطوائف » الرهيبة ، قال الطبري :

« كل منهم كان ملكه قليلاً ، إنما هي قصور وأبيات ، وحولهـــا خندق ، وعدوه قريب منه ، له من الأرض مثل ذلك ونحوه ، يغير أحدهم على صاحبه ، ثم يرجع كالخطفة » !

إن هاتين الصورتين القاتمتين ، لحياة نجد الروحية و « الدنيوية » ، قد يكون فيها بعض المبالغة ، فلا بد للصورة الفنية ، أحيـــاناً ، من الإسراف والتبذير في الخطوط والألوان ، لتلفت اليها الأنظار والأفكار ...

وقد يرى بعضهم أن بلاد نجد كانت ، أيام الشيخ ، في بدء تفتح ، من ناحيـة الأقلية المتعلمة ، لأن فتياناً وكهولاً من نجد كانوا يدرسون الفقه الحنبلي وغيره ، ويرحلون في طلب العلم إلى الاقطار .

ولكن أثر هذه الاقلية في تهذيب الناس لم يكن عميقاً ، لأنهم كانوا يسايرون الناس في معتقداتهم الباطلة ، ويخوضون فيها مع الخائفين ، إلا النذر اليسير منهم ، وقد آثروا العزلة والعافية !

ولنسلم بأنه كان بين رجال الدين طبقة يفهمون الدين على حقيقته ، ولنسلم كذلك بأن البلاد لا تخلو من رجال يؤدون فرائض الدين ، فهل نستطيع أن نذهب أبعد من ذلك ، فندعي أن الجهل لم يكن غالباً .. وأن مظاهر الشرك والبدع لم تكن متفشية بين الخاصة والعامة ؟

والجواب : لا !

لذلك كان كفاح الشيخ لتعليم الناس وتخليصهم من الشرك والبدع والشعوذة والخرافة والانحطاط الخلقي كفاحاً مجيداً ، وكانت آثار دعوته عظيمة جداً ، لم تقف عند الناحية الدينية وحدها ، وإنما تجاوزتها إلى الناحية القومية ، فبفضل محمد ابن عبد الوهاب ومؤازرة محمد بن سعود له ، تألفت أول دولة عربية اسلامية قوية حرة في شبه الجزيرة العربية ، وقد عرف المؤرخون الغربيون المنصفون قدر الدعوة الوهابية فقالوا إنها تعدّ بدء تاريخ الجزيرة العربية الحديث ، بل بدء تاريخ الشرق الأوسط !

إن الصفة المميزة الأولى للدول السعودية كلها هي تمسكها بالإسلام واتخاذه نظاماً لها ، والصفة الثانية تمسكها بعروبتها ، ولا تناقض بين الصفتين ، ورحم الله الشيخ حسن بن حسين بن محمد بن عبد الوهاب الذي قال :

**« نعرف للعرب حقها وسابقتها وفضلها ونحبهم لحديث رسول الله (ص): « حب العرب من الايمان » . وبغضهم نفاق .**

ولا نقول بقول الشعوبية وأراذل الموالي الذين لا يحبون العرب ولا يقرون لهم بفضل ، فإن قولهم بدعة . »

وكان لهذه الدعوة أثرها العظيم في تغيير الأخلاق ..

بل إنك تجد خصوماً للوهابية ، كعثمان بن سند ، لا يملك نفسه عن التحدث بحسن آثارها في الناس ، فيقول :

« من محاسن الوهابيين أنهم أماتوا البدع ومحوها .

وأمنوا البلاد التي ملكوها ، وصار كل ما كان تحت حكمهم من هذه البراري والقفار يسلكها الرجل وحده بلا خفر ..

ومنعوا غزو الأعراب بعضهم على بعض ..

وصار جميع العرب على اختلاف قبائلهم من حضرموت الى الشام كأنهم إخوان ، أولاد رجل واحد ..

وانتقلت أخلاق الأعراب من التوحش إلى الإنسانية ..

وتجد في بعض الأراضي .. بيت « عنزي » وبجنبه بيت « عيتبي » ، وبقربه بيت « حربي » ، وكلهم يرتع .. كلهم إخوان ، ولا تجد أحداً يقول : هذه ديرتي ، ولا يطأها الغريب ! »

كما هو ، مشاهد الآن ، مثلاً — في بعض البلاد ..

## المسألة الثانيــــة

لا ينكر أحد على حركة محمد بن عبد الوهاب الاصلاحية عظيم فضلها ، وأنها أحدثت انقلاباً خيراً في حياة نجد والعرب ، بل وصل أثرها إلى المسلمين في الهند فقام فيهم من يدعو الى مثل دعوة الشيخ ، ولكن هناك مؤلفين غربيين وشرقيين يقولون إن حركة محمد بن عبد الوهاب أدت رسالتها العظيمة في مرحلة من مراحل التاريخ ، ولا يجوز أن نستمر في تطبيق أفكار صاحبها في هذا العصر ، بعد أن تبدلت الدنيا وما عليها ، لأن معنى ذلك الجمود ، أو بتعبير آخر : « إرجاع عقارب الساعة — أو الزمن — الى الوراء » !

وهنا وجه الخطأ.

وسبب الخطأ : عدم التفريق بين فكرة الشيخ الأساسية ، وبين أساليب تطبيقها .

ثم عدم التفريق بين الدين الإسلامي السمح ، وبين موقف الغــلاة ، الذين لا يخلو منهم دين ، ولا مذهب ، ولا عصر ولا بلد !

وهذه المملكة العربية السعودية، إنها تسلك في سياستها، سواء في عهد مؤسسها

الملك عبد العزيز ، أم في عهد زعيمها وملكها القائم الملك فيصل سياسة تقدمية ، في الداخل ، وسياسة متفتحة في صلاتها مع البلاد الإسلامية وغـير الإسلامية ، فهل وقفت دون ذلك أفكار محمد بن عبد الوهاب ؟

لقد زعم بعضهم ان سياسة المملكة العربية السعودية سياسة وهابية ، وأنها تخاطب الناس من باب الإسلام الواسع ، لا من باب مذهبي محدود ، ضيق .

والحق ، إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان يعلن دائماً إنه لا يدعو الى عالم ولا إلى مذهب، وإنما يدعو إلى الإسلام وحده،وسياسة الحكومة العربية السعودية ليست نقضاً لفكرة الشيخ الأساسية وإنما هي تأييد ونصر لها !

وقد يكون صحيحاً قولهم ان ابن عبد الوهاب أخذ بالشدة في أول ظهوره ، وفي بلده ، ولكنه كتب بعد انتشار حركته أقوالاً في آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي حرية الناس باتباع اجتهادهم في أمور الدين ، وفي التفريق بين العادات والعبادات ، لا تدع مجالاً للشك في قدرة الآخذين برأي الشيخ ، الواعين لرسالته ، وعياً صادقاً ، على السير في الحضارة والتقدم إلى المدى الأبعد .

وقد نهى الشيخ نفسه عن التقليد ، فلو افترضنا – جدلاً – أنه أخطأ في بعض آرائه ، فهو لا يلزمنا بها ، لأنه كان داعياً إلى التحرر والتطور ، فكيف يجوز أن ينسب اليه الجمود أو التأخر ؟

إن العالم اليوم تغمره موجة من الأفكار المادية والإلحادية التي تتهدد الديانات كلها ، وتعصف بقلوب الشبيبة ، فينبغي لأصحاب الديانات المختلفة فضلاً عن أصحاب الديانة الواحدة ، أن يتقاربوا ، للدفاع عن العقيدة والمثل الروحية العليا ، لأن زمان التنازع والتعصب ، والتمسك بجزئيات الأمور قد انقضى تماماً ، وهذا ما يدركه رجال الدين العقلاء ، في كل مكان .

وإن كلمة الإمام الأشعري ، تبدو اليوم ، أصدق من يوم تصعدت من أعماق نفسه ، بعد أن كان يتهم المخالفين له ويكفرهم ، قال ، قبيل وفاته :

« اشهدوا علي، إنني لا أكفر أحداً من أهل القبلة، فالجميع يشيرون إلى معبود واحد . وإنما هو اختلاف العبادات » .